مَوْسُوعَةُ
فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ المُجَادَلَةِ

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة المجادلة

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة المجادلة

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ
(١) ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ
لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ
لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ
فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾

تناولت سورة المجادلة معالجة عدداً من واقع حال المؤمنين في عهده صلى الله عليه وسلم، فأعطت تلك المنهجية العلاجية دروساً وعبراً لجميع المؤمنين عبر تواليهم وتعاقبهم في العصور المتتالية إلى أن تقوم الساعة. وقد بدأ البيان الكريم فيما بذكر شأن المرأة التي بثت شكواها إلى الله تعالى، عندما جاءت إلى الرسول صلى الله عليه وسلم طالبة منه العدل فيما كان من شأن ظهار زوجها منها. فأخبر الله تعالى من فوق سبع سماوات بأنه عَزَّ في علاه قد سمع كلامها وشكواها، فأنزل عَزَّ وجل في شأنها قرآناً يُتلى إلى أن يُرْفَع من دار الدنيا. فقال السميع البصير ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ إن ربك أيها الرسول قد سمع كلام المرأة التي تحاورك في شأن زوجها، وتبث وترفع شكواها وشأنها إلى الله تعالى، راجية منه عَزَّ في علاه العلاج لما تشتكي منه، وهو سبحانه وتعالى يسمع ذلك التحاور بينكم، لأنه السميع البصير، الذي لا يفوت على علمه ومشهده شيء أبداً.

فبدأ البيان الكريم بإظهار سماع قولها من السميع البصير سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات، فقال جَلَّ جلاله ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا ﴾ قد سمع ربك أيها الرسول احتجاج المرأة في حوارها معك بصدد وشأن زوجها. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: هي امرأة من الأنصار، واختلف أهل العلم في نَسَبِها واسمها. فقال بعضهم أنها: خولة بنت ثعلبة، وقال بعضهم: خويلة بنت ثعلبة. وزوجها هو: أوس

بن الصامت[١] رضي الله عنهما. وفي فتح الباري لابن حجر: كانت خولة بنت ثعلبة تحت أوس بن الصامت[٢] رضي الله عنهما. قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إنّي لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى علي بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونَثَرتُ له بطني، حتى إذا كَبُرَتْ سِنّي، وانقطع ولدي، ظاهر مني. اللهم إني أشكوا إليك. فما برِحَت حتى نزل جبرائيل، بهؤلاء الآيات ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾[٣] قد سمع ربك أيها الرسول احتجاج المرأة في حوارها معك في شأن زوجها. فلم يغب عنه سبحانه وتعالى شيء أبداً مما كان من شكواها وحالها الذي اغتمر بالحزن والألم والهم. وقد أفاد قوله تعالى ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ ﴾ معيته عَزَّ وجل بالاستماع لما كان بين الشاكي والمشكو إليه عليه الصلاة والسلام، ليجد لها حلاً مع زوجها. وقد أجمل الله تعالى قضيتها وجميع جدالها وشكواها في قول واحد ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ﴾ ولم يقل سبحانه وتعالى: أقوالها. ليفيد ويبين عمق الاحتواء لكلامها بأنه في شأن واحد. وفوراً نزل جبريل بحكم الله تعالى كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: قبل أن تقوم خولة رضي الله عنها من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم. فسبحان من لا تختلف عليه الأصوات، وسبحان من لا تخفى عليه خافية، وسبحان من هو بالإجابة جدير وسريع. فيحكم لها قبل أن تقوم من مقامها رضي الله عنها.

مما يبين كمال قدرة الله تعالى، ورحمته بعباده، وحكمة ونعمة نزول القرآن منجماً متفرقاً، حسب الوقائع والأحداث، ليعالج قضايا الأمة من خلال رسوله الكريم عليه الصلاة والسلام. وقد وصف الله تعالى حالها مع النبي صلى الله عليه وسلم بوصفين دقيقين كريمين: الأول: المجادلة ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ ﴾ والجدال يعني الحوار، ويدل على الأخذ والرد، ويدل على إلحاحها، وقوة ما أصابها. وذكر الطبري رحمه الله تعالى عن ذلك الحوار: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لها (حَرُمْتِ عليه) فجعل إذا قال لها (حَرُمْتِ عليه) هتفت وقالت: أشكو إلى الله فاقتي[٤] فكانت تُكرر على الرسول صلى الله عليه وسلم شكواها، ويذكر لها عليه الصلاة والسلام الحكم، حتى نزل الوحي بالكفارة.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٤٤٦)

(٢) ابن حجر، فتح الباري (١٣/٣٨٦)

(٣) ابن ماجه، صحيح ابن ماجه للألباني (١٦٩١)

(٤) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٤٤٧)

والثاني: رفع الشكوى إلى الله تعالى ﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وهو قولها: أشكو إلى الله فاقتي. مما يدل على أن الشأن قد بلغ منها مبلغاً لا صبر لها عليه. حتى أن الله تعالى أورد شكواها بصيغة المبالغة. قال ابن عاشور رحمه الله تعالى: والاشتكاء: مبالغة في الشكوى، وهي ذكر ما تأذى منه[١] فقد رفعت شكواها ومطلبها إلى ربها سبحانه وتعالى. مما يستدعي من كل مؤمن أن يبث ما يجد من حاله ومطالبه إلى الله تعالى، فإنه يسمع كل شيء، ويجيب المضطر، ويقضي بحكمه وقدرته سبحانه وتعالى، فلا يعجزه شيء عَزَّ في علاه.

وقد قال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ قد سمع ربكم عَزَّ في علاه جميع ما دار من الحوار، ومعززاً ذلك بما هو له من كمال الأسماء والصفات تبارك وتعالى، فقال عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ فإن الله تعالى سميع للأقوال، وبصير بأفعال العباد. فلا يفوت عليه منها شيء أبداً. ووردت صفة السمع بصيغة المبالغة ﴿سَمِيعٌ﴾ والتي تفيد المبالغة في قوة السمع وامتداده إلى كل شيء، فلا يفوته من المسموعات شيئاً أبداً؛ مهما تخفى المتكلم به، من خفض صوته، أو تكتم عليه، فإنها لا تفوت عليه عَزَّ وجل، حتى الكلمة الواحدة، بل حتى ما تتخفى به الصدور، وتتكتم عليه النفوس. وكذلك وردت صفة الإبصار بصيغة المبالغة ﴿بَصِيرٌ﴾ التي تفيد قوة البصر الذي لا يفوت به شيء عنه سبحانه وتعالى، مهما بلغ صِغر حجمه، ومهما كان ظلام المكان الذي هو فيه، ومهما بلغ التخفي، فلا يفوته حتى الجزء من الشيء المتخفي به، حتى ولو كان مثقال خردلة على صخرة صماء؛ في ليلة سوداء. فلا يغيب عنه متغيبٌ أبداً. مما يفيد أن الله تعالى عليم بكم وبأحوالكم، فخافوه، وارجوه، واسألوه فإنه السميع البصير، والمجيب لكم، كما أجاب لتلك التي تشتكي حالها وما تظلمت منه إلى ربها سبحانه وتعالى.

وقبل أن ينتقل البيان من الله تعالى لعلاج شأن المرأة مع زوجها في شكواها، يبين عَزَّ وجل للعباد حقائق الصلة والقرابة، وعدم إنزالها وتوظيفها في غير منزلتها، لأن الظهار أن يقول الرجل لامرأته: أنت عليَّ كظهر أمي. يعني لا تحلين لي. فقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ فإن الذين يظاهرون من زوجاتهم، وذلك بوصفهن: بمنزلة الأم، أو أنهن عليهم مثل أمهاتهم ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ﴾ ليسوا بأمهاتهم أبداً، من كل وجه. بما يفيد الاستنكار الشديد على أن توضع الزوجة موضع الأم من حيث

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٣٤٥/١١)

التشبيه. قال الزمخشري رحمه الله تعالى فيه: توبيخ للعرب، وتهجين لعادتهم في الظهار[1] فهو نفي يفيد الاستنكار الشديد.

فمعنى قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم ﴾ هو القول للزوجة: أنت عليَّ كظهر أمي. فالظهار كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية أنت عليَّ كظهر أمي، حَرُمَت عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام أوس. ثم ندم[2] قال القرطبي رحمه الله تعالى: أجمع الفقهاء على أن من قال لزوجته: أنت عليَّ كظهر أمي، أنه مظاهر[3] وفي قوله تعالى ﴿ مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡ ﴾ استنكار على وضع الشيء في غير موضعه، فهو تشبيه لا يليق بمنزلة الأم ومكانتها. ولذلك أكد ذلك النفي بقوله سبحانه وتعالى ﴿ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡ ﴾ إن الأمهات هن اللاتي ولدن هؤلاء الذين يظاهرون من زوجاتهم بهذا القول المخالف للطبيعة البشرية، والفطرة السوية. فكيف تُوضع الزوجة في موضع الأم. مما يبين أن من مواصفات الجاهلية أنها تمثل الجهل في التصرفات والوصف، وحتى في القياس. فما أبعد الأم عن الزوجة في كل شيء. فلكل منهما مقامها المغاير والمختلف. وفي ذلك تصحيح لمنهجهم ومفاهيمهم بأسلوب الاستنكار والتهجين لقياسهم السقيم.

وقد وصف الله تعالى هذا القول من الظهار بوصفين ذميمين: فقال تعالى ﴿ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗا ﴾ فالأول: أنه باطل ﴿ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ ﴾ تنكره العقول السليمة، فهو قول مخالف للصواب والحقيقة، فتنكره الحقائق والطبائع وشريعة الله تعالى. والثاني: أنه من الكذب ﴿ وَزُورٗا ﴾ أي: باطلاً، بانحرافه عن الحق والحقيقة، لأنه رَكَّبَ ووضع أمراً وشأناً محل أمرٍ وشأنٍ آخر لا يتوافق معه أبداً. بما يفيد التنفير منه، ومن القول به، لأن صورته قد امتلأت زوراً ومنكراً وبهتاناً من القول. فإن صفتي ﴿ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗا ﴾ جمعت مفردات المنكر بجميع أنواعه، وكذلك حال الزور في حاله وصفته من الخداع، بإحلال الشيء مكان غيره مما لا يتناسب ولا يتوافق معه أبداً. وفيه تعظيم الكلام، والأساليب، ومقام الأم، ومقام الزوجة، بوضع كل واحدة في مكانها اللائق بها، وبنوع مقامها.

---

(١) الزمخشري، الكشاف (٤/٤٨٣)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٧/٣١٥)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٧/١٧٧)

ومع هذا كله فإن ربكم متصف بالعفو والمغفرة لمن تاب عما بدر منه من الكذب والزور وغيره، وسواء في هذا الأمر، أو في غيره. فقال تعالى ﴿ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴾ إن ربكم أيها الناس يصفح ويمحوا الذنوب لمن تاب عما بدره منه. أي: كثير العفو والمغفرة للمؤمنين، فيما يقع منهم من الذنوب، فيكفر عنهم ذنوبهم بالعفو عنهم، ومغفرتها. والعفو هو: الصفح والتجاوز عن الذنب، وترك معاقبة صاحبه عليه، فهو إسقاط لحق واجب الأخذ به من الأفعال والأقوال الْمُوجِبة للجزاء والعقاب.

وكذلك فإن ربكم أيها العباد متصف بالمغفرة ﴿ غَفُورٌ ﴾ يمحو ويستر الذنوب لمن استغفر وتاب. وهو اسم من أسماء الله تعالى الْحُسنَى، المتضمن لصفة المغفرة. وهو من صيغ المبالغة، التي تفيد امتداد المغفرة إلى أقصاها وكمالها بمحوها وسترها. فإن ربكم هو الغفور لذنوب عباده، وأنه رحيم بهم بهذا العفو والمغفرة، بما يفيد الترغيب والحث لعباده بأن يستغفروا ربهم، ويتوبوا إليه، فإن ربكم متصف بالعفو والمغفرة من أن يعاقب على الذنوب بعد أن يتوب التائب منها، ويندم على ما كان منه، وأقلع عن الذنب الذي تاب منه. وإنها لنعمة عظيمة أن يغفر الله تعالى لمن تاب وأناب، وهذه رحمة جليلة عظيمة بأن يرحم عباده المؤمنين بعفوه ومغفرته. وفي هذا ترغيب للعباد على الاستقامة، وعلى سؤال ربهم المغفرة. فالحمد لله رب العالمين. اللهم اغفر لنا وارحمنا.

وبعد أن أبطل وشنع سبحانه وتعالى ألفاظ الظهار، بتهجين معناه الذي لا يليق بأولي الألباب، لما فيه من السفه والزور، ينتقل البيان في تدرج عميق إلى معالجة شأن من ظاهر من زوجته. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ فأورد الله سبحانه وتعالى البيان عاماً، ليعالج قضية المرأة المعنية بالأمر، وليكون علاجاً عاماً، وحكماً لمن يكون منه مثل ذلك. فإن الذين يُحَرِّمُون زوجاتهم على أنفسهم بالظهار منهن، ثم يريدون أن يعودوا إليهن بعد الظهار. فإن العلاج بالكفارة التي أوردها لكم ربكم سبحانه وتعالى. وقد أفادت دلالة ﴿ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ الرجوع إلى الزوجة بعد الترك والمفارقة بالظهار، فيشمل العودة إلى ما كان منهم قبل الظهار ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ ﴾ بالرجوع عن قولهم، فإن كفارة ذلك هو ﴿ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ ﴾ أي: عتق رقبة قبل أن يحصل بينهما جماع ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ وهو وطء الزوج زوجته. وللعلماء تفصيل فقهي في ذلك، قد تناولتها كتب الفقه، وبعض كتب التفسير.

ثم ذكر تبارك وتعالى علة وسبب هذا الحكم العظيم الحكيم، فقال تعالى ﴿ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦ ﴾ ذلكم الحكم هو حكم الله ربكم الذي يعظكم به، لتجتنبوا الظهار، ولا تعودوا إليه. فلما أن الله تعالى أراد أن يمنع

المؤمنين منه فقد شَدَّدَ عليهم في العقوبة التي تردعهم. مما يبن أن في تشديد العقوبات من الله تعالى هو لتحقيق مصلحة العباد، إذ أن بعض الأمور من المخالفات، لا يمنعها ويَحِدُّ منها إلا العقوبة الصارمة التي تُنَفِّر الإنسان بالحذر من إتيانها.

ثم أخبر جَلَّ جلاله أنه علمه مستوفي لجميع ما يعمله العباد. فقال تعالى ﴿ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ فربكم خبير بما تعملون، فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تحدث منكم، فاحذروا من المخالفة لما ينهاكم عنه ربكم سبحانه وتعالى. أي عالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فلا يغيب عنه شيء أبداً، فهو خبير بموضعها. وإن هذا الإخبار الدقيق يغرس في الْمُخَاطَب الانتباه، واليقظة، والحرص من فعل الذنوب عموماً، ومنها الظهار، بل الحذر حتى من أصغر الصغائر، ووجوب التوقي منها بكل ما يستطيع المؤمن. وفي هذا بيان لكمال قدرة الله تعالى ولطفه وعلمه الذي شمل جميع مخلوقاته، وتحركاتهم، وأماكنهم، فلا يغيب عنه من خلقه شيء أبداً، وهذا العلم بأن الله تعالى خبير يقوي إيمان العبد، ويغرس فيه الحرص، والاجتهاد في الطاعة، والبعد عن المعصية. فسبحان الله الخبير العليم.

فلما قُضي الوحي، قال صلى الله عليه وسلم (ادعي زوجك) فتلاها عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمۡ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (أتستطيع رقبة؟) قال: لا. قال ﴿ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّا ﴾ قال: يا رسول الله. إني إذا لم آكل في اليوم ثلاث مرات، خشيت أن يعشو بصري. قال ﴿ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗا ﴾ قال: (أتستطيع أن تُطعم ستين مسكيناً؟) قال: لا يا رسول الله، إلا أن تعينني. قال: فأعانه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأطعم(١) وهذا من سماحة الإسلام، ومما يفيد أن الكفارة على سبيل التدرج، وليس على سبيل الاختيار، إذ بدأ معه صلى الله عليه وسلم بعتق رقبة، كما قال تعالى. فلما قال: لا أستطيع، انتقل به إلى الأمر الثاني بحسب الآية الكريم: وهو الصيام، فلما ذكر عجزه بما سيصيبه من ضعف النظر، نقله صلى الله عليه وسلم وفق ضبط الآية الكريمة إلى الإطعام، وأعانه عليه صلى الله عليه وسلم. مما يبين عظمة هذا الدين في مراعاته للفروق والأحوال بين الناس، ليتأكد بذلك أنه تنزيل من الرحمن الرحيم. فنحمد الله تعالى على هذه النعمة العظيمة منه جَلَّ جلاله بهذا القرآن، وبهذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وبهذا الدين العظيم.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٤٤٧)

ثم ذكر تبارك وتعالى علة وسبب ذلك الحكم، فأشار إليه سبحانه وتعالى بقوله عَزَّ وجل ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي: ذلك الحكم، بما يفيد تعظيم الحكم وإجلاله، وقوته في الردع والتأديب ﴿ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ إن ذلك الحكم هو لتصدقوا بأن ربكم الله الذي أمر به معالجة وحلاً لما تقعون فيه، وأن تُصَدِّقُوا الرسول صلى الله عليه وسلم فيما قاله لكم من الحكم بهذه الآيات البينات ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ وتلك المذكورات من الكفارات في الظهار، هي حدود الله ربكم سبحانه وتعالى، أي: محارمه التي يلزمكم أن لا تنتهكوها، وأن تنزجروا عن الوقوع فيها، ولا تتجاوزوها.

ومن دقائق البيان أن عَظَّمَها اللهُ تعالى بتسميتها بالحدود، ونسبها له جَلَّ جلاله ﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ لإفادة التعظيم، لأن الحدود هي الموانع والفواصل التي يجب الوقوف عندها. ثم وصف من كذب بها وأنكرها بأنه من الكافرين. فقال تعالى ﴿ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وللجاحدين بهذه الحدود والفرائض ﴿ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ عقاب من العذاب المؤلم من شدته وقوته. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الذين لم يؤمنوا ولا التزموا بأحكام هذه الشريعة، لا يعتقدوا أنهم ناجون من البلاء، كلا. ليس الأمر كما زعموا، بل لهم عذاب أليم. أي: في الدنيا والآخرة[١] فذلك موعظة من الله سبحانه وتعالى، مع ما تضمن من الكفارات، والإرشاد والتوجيه الذي يُبعد المؤمن عما نهى الله تعالى عنه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ٥ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ٦ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٧ ﴾

بعد معالجة حالة المرأة في شأنها مع زوجها رضي الله عنها، الذي ظاهر منها، ينتقل التوجيه الكريم إلى معالجة شأن الذين يخالفون أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم. فيقول عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٤٤/٤)

يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُواْ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۚ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ إن الذين يخالفون ويناقضون، وينكرون، ويعادون، ما ورد عن الله سبحانه وتعالى، وعن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فإن عاقبتهم هو الإذلال والإهانة لهم، كما هو حال مَن قبلهم ممن كبتهم ربهم عَزَّ في علاه.

فيتوعد سبحانه وتعالى كل من يهاجم ويحارب وينكر ما ورد عنه عَزَّ في علاه، وعن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهم المعاندون ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ﴾ أي: يخالفون ويناقضون، وينكرون، ويعادون، ويعملون بأضداد أحكام ﴿ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ فإنهم معاقبون بالكبت ﴿ كُبِتُواْ ﴾ وهو الإذلال والقهر ﴿ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ كما أذللنا الذين من قبلهم، بالإهانة والعذاب، من الأمم السابقة التي عملت بمثل ذلك من العناد والمحاربة لرسلهم. بما يفيد التحذير والاعتبار بمن كان قبلكم من الأمم السابقة، فإن لكم فيهم عبرة وموعظة تتعظون بها.

ثم يخبر تبارك وتعالى بزوال العذر لهؤلاء المعاندين، المحادين، لأنه جَلَّ جلاله قد أنزل ما تقوم به الحجة عليهم، فقال تعالى ﴿ وَقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ ﴾ قد أنزلنا الحجج والبراهين الواضحة التي تبين وتؤكد لكم أن هذا دين الله تعالى، وهذا رسوله صلى الله عليه وسلم. وبالتالي فإن مَنْ أعرض فهو كافر ﴿ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ وأن للكافرين عذاب مخزي، مُذل للمعذَّبين به. فيخزهم ويكسر شوكتهم بالإهانة المخزية، وقوته الشديدة والمهينة. بما يفيد عليكم أن تحذروا يا من تحادون الله ربكم، ورسوله صلى الله عليه وسلم من عواقب ذلك.

ثم يتدرج البيان إلى تفاصيل يوم القيامة، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ واذكروا يوم يبعثهم الله تعالى من قبورهم جميعاً يوم القيامة، فيخبرهم بما صنعوا في حياتهم الدنيا ﴿ أَحۡصَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ فقد حفظه وضبطه الله تعالى عليهم ﴿ وَنَسُوهُ ﴾ وقد نسوا ما كان منهم من الأعمال المخزية، ولكن ربكم شهيد على ما كان منهم ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾ فإن الله تعالى عالم بالظواهر والسرائر، وأنه عَزَّ وجل شاهد على خفايا العباد، وجميع ما كان منهم في الدنيا. فقد تحقق بذلك الإحصاء الدقيق لأعمالهم ما يناسبهم من العقوبة. ليكون حسابهم وفق ما كان منهم. وفي هذا تنبيه لهم بأن يحذروا من ذلك اليوم بالإيمان والاتباع لدين الله تعالى. وهذا من رحمته وعدله سبحانه وتعالى أن يبين للناس ما هم فيه، وما هم مقبلين عليه.

ثم يتوجه البيان الكريم إلى لفت الانتباه لدلائل عظيم علمه سبحانه وتعالى بما يكون ويحدث في السماوات والأرض. فيقول عزَّ وجل ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى كل أحد من العباد، وذلك بلفت الانتباه واستثارتهم جميعاً إلى عظيم علمه سبحانه وتعالى، بأنه عالم بكل ما يحدث في هذا الكون الفسيح، فيقول عزَّ وجل﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ سؤال يلفت الانتباه إلى التبصر. فبدأ التوجيه الكريم بهذا السؤال عما سيقرره للعباد عن كمال علمه ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ألم تعلم أيها الْمُخَاطَب بما ترى من تدبير ربك لهذا الكون أنه ﴿ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فإن من كمال علم ربكم أنه يعلم بكل شيء مما في السماوات والأرض، فلا يغيب عنه شيء عَزَّ وجل مع سعة السماوات والأرض وكثرة ما فيها، وما يعرج إليها، وما ينزل منها. وكذلك الأرض، وما يحدث فيها، مما هو على ظهرها، أو في باطنها، وما يكون في جوف البحار، وما هو على سطحها. فلا تختلف دقة علمه عن شيء دون شيء. فكيف لا يعلم بحقائقكم، وأعمالكم، وبما في قلوبكم وضمائركم وسرائركم من الحقائق التي لا تخفى عليه سبحانه وتعالى. فلا يحتاج ربكم جَلَّ في علاه إلى من يخبره عنكم.

وجملة ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ تفيد الاستفهام على سبيل التقرير بما هو معروف ومتقرر عند الْمُخَاطَب، فَيُلْجِئُهُ إلى الحقيقة والبرهان والدليل المحسوس الذي يدركه بعينه وبصيرته من عظمة الكون. وقد ورد الخطاب الاستفهامي ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ دون تحديد وتعيين فرداً بعينه من الْمُخَاطَبِين ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ ألم تشاهد أيها المخاطب، دون تحديد، ليشمل النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين والمشركين، وجميع عباده منذ نزول هذه الآية الكريمة إلى أن يُفْنِي اللهُ تعالى الأرض ومن عليها بقيام الساعة. وفي إفراد الْمُخَاطَب ما يفيد التعميم، بأنه خطاب لكل أحد من الناس بعينه، فيخاطبه رَبُّهُ تبارك وتعالى بذاته، فإن الرؤية حاصلة لكل بصير بنفسه. وهذه دقة في الخطاب والتوجيه، وفي صيغة البيان، وقوة أثره.

وإن كان الخطاب موجهاً للنبي صلى الله عليه وسلم، فهو لتعظيم شأنه وشأن ما يشاهدونه، ولكن سياقه يعطي دلالة العموم، دون تحديد وتعيين لأحد بعينه، ليشمل جميع عباده من غير تخصيص. لأن في إفراد الْمُخَاطَب ما يفيد التعميم، بأنه لكل أحد من الناس، بأن الله تعالى خاطبه بذاته، ليقيم عليه الحجة بهذا البيان العظيم منه عَزَّ وجل، وهذه دقة بيانية في الخطاب، وفيما تضمنه من مقاصد التوجيه، وفي بلاغة بيانه، وقوة صياغته، وأثره على النفس البشرية. فهو سؤال يشد الانتباه، ويوقظ الذهن، ويستدعي التفكير، ويستثير

التأمل، مع إثارة الترقب والمتابعة لعظيم ما بعده من التوجيه والبيان الرباني الكريم. وتأتي جملة ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بمعنى ألم يلفت انتباهك هذه المشاهد العظيمة للكون. وكذلك هو سؤال تقريري، لخبر من الله تبارك وتعالى، يُقرر فيه واقع ما يشاهده المخاطب من آيات الله تعالى العظيمة الدالة على كمال علمه عَزَّ وجل، وعلى الإحياء بعد الإماتة.

وبعد الاستدلال بكمال علمه سبحانه وتعالى لعالم السماوات والأرض يخبر بما هو متعلق بأحوال العباد. فقال تبارك وتعالى ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ فإنه لا يتحدث اثنان من الخلق فيما بينهم بأسلوب النجوى، التي تعني التخفي، وكتم الصوت حتى لا يسمعهم أحد غيرهم إلا وكان الله تعالى رابعهم بعلمه، وإحاطته بكل ما كان بينهم من النجوى الذي يتسارون به فيما بينهم. ثم يؤكد ذلك بقوله تعالى ﴿وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وحتى إن كبر وكثر العدد من العباد، فإنه مع ذلك العدد، وقوة التخفي، فإن ربكم هو سادس الخمسة المتناجين، بما يفيد أنه قد علم بجميع ما كان منهم من النجوى، وهو الكلام المخفي، المسرور به عن الغير. فلم يغب عليه شيء مما دار بينهم أبداً.

وبعد التعيين لحالات عدد المتناجين، لتقريب الفهم للناس. يُجمل تبارك وتعالى عدد المتناجين بما يثبت عظيم علمه بهم. فيقول عَزَّ وجل ﴿وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ ولا أقل من ذلك العدد، ليفيد قوة العلم منه جَلَّ جلاله مع شدة التخفي. ثم يزداد التعميم بقوة علمه جَلَّ شأنه فيما إذا كثر العدد، فيقول سبحانه وتعالى ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ من ذلك العدد إلا هو معهم بعلمه سبحانه وتعالى. ليفيد مهما بلغ العدد في كثرته ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ إلا وربكم معهم بعلمه وإحاطته سبحانه وتعالى بكل ما دار من نجوى وإسرار.

ثم يؤكد ذلك حتى من حيث المكان ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ من أي جهة كانوا متخفين فيه، أي: مهما بالغوا في التخفي ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ فإنه في يوم القيامة يخبرهم تبارك وتعالى بما عملوا بكل دقة، حتى ما كان بينهم من النجوى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فإن ربكم هو لا غيره بكل شيء عليم، فيعلم بتفاصيل حقائق العباد، وما يكون من ظاهر أعمالهم، وما يخفونه، ويسرون به. بما يفيد التحذير من المكائد، ومن خفايا المعاصي. ووجوب الإيمان بذلك. كما أن اليقين بعلم الله تعالى يربي في المؤمن الحذر، واستشعار معية الله تعالى له في كل حال، ومع كل خطاب، وفي كل مناجاة، ولا تمنعه الظلمات، ولا الحواجز، ولا الستور. فكل شيء مكشوف لله تعالى. بل يعلم ما تخفيه الصدور، فكيف بظواهر الأقوال والأعمال.

﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيۡسَ بِضَآرِّهِمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمۡ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلۡمَجَٰلِسِ فَٱفۡسَحُواْ يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١١﴾ ﴾

يخاطب الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبع له. فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ وَيَتَنَٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُۚ حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ يَصۡلَوۡنَهَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾ ألم تشاهد وتبصر أولئك الذين نهاهم الله تعالى عن النجوى من المنافقين واليهود والمشركين، الذين يتناجون بالشر والكيد، ثم يعودون إلى ما نهيناهم عنه؟ سؤال يبين تماديهم فيما حذرهم الله تعالى منه ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجۡوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ ﴾ سؤال تحذير، يستفتحه سبحانه وتعالى بجملة ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ والبيان بقوله تعالى ﴿ أَلَمۡ تَرَ ﴾ هو سؤال استفهام، لكنه تقريري، بسبب ما يدركه المخاطبون بعقولهم التي وهبها الله تعالى لهم. وبما حذرهم عنه من علمه عَزَّ وجل بما يتناجون به من الكيد لرسوله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين. وهو سؤال يشد الذهن والانتباه والحس إلى علمه تبارك وتعالى بما هم مستمرون على ما نهاهم عنه عَزَّ وجل من النجوى الكيدية الشيطانية. فأعطى وأفاد السؤال دلالة التقرير، ولكنه بصيغة الاستفهام عَمَّا حذرهم الله تعالى منه، فَيُلْجِئُهُم بذلك إلى الانتهاء وإلى الإقرار بعلم الله تعالى، وبالحقيقة والبرهان والدليل.

وفي هذا من الفوائد أيضاً: التعجب من الحال والأمر الذي يحمل توبيخهم بالإعراض عن الحق، الذي اتضح لهم بما يخبرهم به سبحانه وتعالى عن حقائق نجواهم التي يتخفون ويتسترون بها. الأمر الذي يكشف للعباد عظيم علم الله تعالى حتى بدقائق أحوال العباد وسرائرهم، فلا تخفى على الله تعالى خافية في الأرض ولا في السماء. بما يُوجب عليهم، ويُحقق لهم وفيهم استبصار الحق وفهمه بأصوله، والإذعان له. وهو أسلوب

توقف وتأمل، يستثير ويستدعي الذهن للتفكر فيما يجب أن يتفكر ويتأمل فيه. كما أن في دلالاته ما يُفضي بوجوب طاعة الله تعالى، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، الذي كشف لهم حقائقهم التي يتسترون بها. ليستعيد به الإنسان سلامة وصحة منهجه في أمره وشأنه. فعجباً من هؤلاء الذين لا يعقلون ما يُقال لهم، ولا يستفيدون منه بما ينصلح به حالهم في الدارين.

ثم يؤكد سبحانه بيان علمه عَزَّ وجل بإظهار ما كانوا يتناجون فيه، فقال تبارك وتعالى ﴿ وَيَتَنَـٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ فقد اشتمل تناجيهم فيما بينهم على ما يسوء المسلمين، ومعادات الدين، والتواصي فيما بينهم بمعصية الرسول صلى الله عليه وسلم. وبالرغم من أن كل مفردة من تلك المفردات جامعة وشاملة لجميع السوء والشر، ومعادات الدين. وأنهم سيحاسبون عليه إلا أن في تفنيد كل واحدة على حدة ما يبين دقة الوصف الذي يبين دقة علم الله تعالى بتفاصيل ما يتناجون به. فالإثم في قوله عَزَّ وجل ﴿ وَيَتَنَـٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ ﴾ هو الذنب الذي يستوجب العقاب. وقد فسره صلى الله عليه وسلم بقوله (والإثم ما حاك في نفسك، وكرهت أن يطلع عليه الناس)[1] فأفاد وصف الإثم فيما يتناجون به أنه شامل لجميع ما يتناجون به ضد الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، ومستوفي لجميع ما يتحقق به الذنب الذي يستوجب عقابهم من الله تعالى، وبذلك تشمل دلالة الإثم ما بعده، إلا أن في إفراد ما بعده بالذكر هو لبيان نوعه، وإفادة الدقة بعلم الله تعالى لمحتوى وتفاصيل ما يتناجون فيه. فقال تعالى﴿ وَيَتَنَـٰجَوۡنَ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ فخص العدوان بالذكر ﴿ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ ﴾ من المكائد التي يعدونها من أجل العمل بها ضد الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين. ليفيد جميع أنواع ما يتداولونه بينهم من العدوان الذي مركزه شن المكائد لهذا الدين وأهله ولرسوله صلى الله عليه وسلم. وهو داخل في الإثم إلا أن في إظهاره لبيان نوعه.

ثم خص سبحانه وتعالى مصادمتهم للرسول عليه الصلاة والسلام، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي: استخدام جميع ما يُضاد الرسول صلى الله عليه وسلم، في أمره ونهيه. فهم يتداولون بينهم عن طريق التخفي بالنجوى مخالفة ومصادمة ومعارضة لِمَا يأمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك إتيان ما نهى عنه عليه الصلاة والسلام. بما يفيد المعصية، وشق عصا الطاعة، وإحداث الفرقة، والتشتيت. بغرض وهدف تحقيق التمزق، وإضعاف هيبة وشأن الرسول صلى الله عليه وسلم، بشق عصا الطاعة، وإيجاد المعارضة والمخالفة. فكشف الله تعالى سرهم الذي يتناجون به بأدق التفاصيل. الأمر الذي يستوجب منهم الإيمان، لأن في إخبارهم بسرائرهم آية ودليلاً وحجة بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول الله، وأن ربنا يُوحي إليه ويخبره

(١) مسلم، صحيح مسلم، برقم (٢٥٥٣)

حتى بما يكون منهم. ولكن الكبر والاستعلاء والحسد، والشغف بزينة الحياة الدنيا، وتقديمها على الآخرة كان هو السبب الرئيس في الكفر، ومحاربة دين الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق علم الله تعالى هو الإخبار كذلك بحال هؤلاء المنافقين واليهود عند قدومهم واجتماعهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم. فإنهم لا يحيونه بتحية الإسلام، بل يصرفونها إلى أضدادها. فقال تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان اليهود يأتون النبي صلى الله عليه وسلم، فيقولون: السام عليكم. فيقول لهم عليه الصلاة والسلام (وعليكم). وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: فقلت: السام عليكم وغضب الله. فقال صلى الله عليه وسلم (إن الله لا يحب الفاحش المتفحش)[١] وهم يعنون بالسام الموت. فيرد عليهم بمثله. لأنه كما قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً. وكان يقول إن من خياركم أحسنكم أخلاقا[٢] ومع هذا يتعامل معهم عليه الصلاة والسلام بالحكمة. مما يعلم الناس كيف يتعاملون مع من يسيء إليهم. وقيل نزلت في اليهود، وقيل نزلت في المنافقين[٣] مما يفيد أن هذه التحية البغيضة هي من المحاربين لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق علم الله سبحانه وتعالى أن أخبر عَزَّ وجل بما يختلج في نفوسهم، فيقول جَلَّ جلاله عنهم ﴿ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ فإنهم يقولون في دواخل نفوسهم: لولا يعذبنا الله بما نقول له في تحيتنا له: السام عليكم، فلو كان نبياً حقاً لعذبنا الله بما نقول. عليه الصلاة والسلام. وهذا اعتراف منهم بعظيم إثمهم، وأنهم يستحقون العذاب بما قالوا. بما يفيد اعترافهم بنبوته صلى الله عليه وسلم. وهناك وجه آخر، ذكره بعض أهل التفسير. قال القرطبي رحمه الله تعالى: قالوا: لو كان محمداً نبياً لعذبنا الله بما نقول. فهلّا يعذبنا الله. وقيل: قالوا: إنه يَرُدُّ علينا، ويقول: وعليكم السام. والسام الموت. فلو كان نبياً استُجِيب له فينا، ومتنا[٤] كما يفيد ذلك وجهاً آخر، وهو: أنهم يعلمون حق اليقين بأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسولاً من الله تبارك وتعالى. فيستبطئون العذاب الذي يرون أنه متحقق فيهم جزاءً واستحقاقاً لهم به.

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٧١/٢٢)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٣٥٥٩)

(٣) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢١/٧)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩١/١٧)

قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: ويقولوا مُحَيُّوك بهذه التحية من اليهود: هلا يعاقبنا الله بما نقول لمحمد عليه الصلاة والسلام، فيعجل عقوبته لنا[1] فاستنكارهم باستبطائهم للعذاب هو مثار تساؤل يختلج في نفوسهم. ولكنهم يجحدون لما في أنفسهم من الحسد، والاستكبار. كما قال تعالى في سورة الأنعام ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ إنهم لا يكذبون البراهين، ولكن يجحدونها، فيصدون عنها، لأن الجحود: نفي ما في القلب إثباته، كما جاء في سورة النمل ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ فنكرانهم هو نكران جحود. مما يبين مخاطر الحسد والكبر على النفس، إلى درجة أنه يجعل الحاسد والمستكبر يُؤثر ويفضل الشر على نفسه من أجل ألا يُظهر اعترافه بالنعمة على غيره. بل حتى أنه يتحمل دخول النار، ويحرم نفسه من دخول الجنة.

ثم يقول تعالى جزاء وتوبيخاً وتهديداً لهم ﴿ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَاۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي: أن في عذاب جهنم كفاية لذنوبهم، حيث تبلغ بهم نار جهنم كفايتهم من العذاب، مما يفيد شدة عذابهم، وعظيم هولها، بما يوفيهم كمال استحقاقهم من العذاب الذي يستحقونه، فإنه لا شيء أبلغ من نار جهنم في العذاب حتى يُزاد عليهم به، فإن دلالة ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ تفيد بئس الحال التي يؤولون ويعودون إليها، لتكون مصيراً وجزاء لهم. وقد ورد عذاب جهنم بأنهم بدلالة ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي: الاصطلاء. فيقاسون شدة حرها. التي تكشف شدة وقوة معاناتهم فيها ﴿ يَصْلَوْنَهَا ﴾ فإنهم يُقَاسُون شدة لظاها وسعيرها بدخولهم فيها، كما يفيد معنى الصلي: الشواء بالنار، فيشتوون فيها مثل ما تُشوى اللحمة على النار، مع الفارق بين نار الدنيا ونار جهنم. فهو تصوير دقيق لدار قرار الكافرين.

ثم يتجه الخطاب من الله تعالى للمؤمنين بالتحذير لهم من أن تشتمل نجواهم على مثل ما اشتملت عليه نجوى الكافرين، فإن عليكم أن تحصروا نجواكم في البر والتقوى. فقال تعالى مخاطباً المؤمنين: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ يا أيها الذين صَدَّقُوا بالله وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبجميع أركان الإيمان، وعملوا بدينه القويم، لا تكن مناجاتكم بينكم على الإثم والعدوان ومعصية رسولكم صلى الله عليه وسلم، فاحذروا من مسلك الكفرة من المنافقين واليهود ومن معهم من المشركين. وفي هذا تعليم وإرشاد وتحذير حتى لا يقع أحد

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٤٧٣/٢٢)

منهم في شيء من ذلك، وحتى يحذروا من المنافقين الذين قد يستدرجونهم لما هم عليه من الخبث. فهو تحذير وقائي. مما يفيد حاجة المؤمن في كل وقت إلى من يعظه ويحذره من منهج وشر أهل البدع والكفر وغيرهم.

وقد بدأ الخطاب للمؤمنين بمناداتهم بصفة الإيمان، وبياء النداء. فقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية، وكذلك تضمن تسمية الْمُخَاطَبين بصفة الإيمان، التي هي من أرقى درجات الوصف، وكذلك ما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به، وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ والتي تحمل إثبات الإيمان لهم، والتزكية لإيمانهم، بما ينتفي معه التعذر من عدم الوفاء بمضمون ما نُودوا له؛ وخُوطِبُوا وأُمِرُوا به.

وفي مخاطبتهم بأسلوب النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ ما يسترعي أسماعهم، ولفت انتباههم لأمر عظيم جليل، قال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فأرعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه[1] فيستدعي أسلوب النداء الآذان للإصغاء، والعقول للانتباه إلى ما بعده من كلام وخطاب رب العالمين، مما يدل على أهمية ما نادى إليه ربنا تبارك وتعالى من البيان، وما يجب تجاهه من الأخذ والاهتمام به؛ مع قوة الالتزام.

ومن الفوائد السلوكية: إذا كان الله تعالى ينادي عباده بهذا النداء الكريم، وهذا اللطف العظيم وهو ربهم ومولاهم وخالقهم، وهم عبيده، فإن العبد أحوج إليه في أسلوب مناداته ومخاطبته لغيره من المخلوقين، خاصة عند التوجيه والطلب أو الأمر، فإنه أدعى للتفاعل والقبول، وتليين القلوب.

وبعد النداء الكريم وجههم سبحانه وتعالى بالنهي الذي يفيد التحذير ﴿ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ فحين تناجيكم بينكم، فإياكم أن تكون مناجاتكم على الإثم والعدوان ومعصية رسولكم صلى الله عليه وسلم، فاحذروا من مسلك الكفرة من المنافقين واليهود ومن معهم من المشركين. ثم ذكر تبارك وتعالى المنهج الأخلاقي لكريم الذي يجب أن يسلكوه في مناجاتهم. فقال تعالى ﴿ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ ﴾ فليكن محتوى مناجاتكم قائم على ركيزتين عظيمتين، يتحقق لكم بها الفلاح: الأولى: ﴿ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ ﴾ والبر هو

[1] ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٢)

الخير المنافي للإثم، وهو جميع ما يتحقق به طاعة الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وسلم. فهو اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأفعال. والأمر الثاني الذي يكون قاعدة في تناجيكم هو: ﴿ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ أي: لزوم التقوى. وهو الشأن الذي يجمع فيه المتقون بين الخوف من الله تعالى وبين رجاء رحمته. وهو الأمر الذي يشعر فيه المؤمن بأن الله تعالى مطلع عليه، وسيحاسبه على ما يكون منه، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. فهاتان القاعدتان أعظم القواعد لسلوك الاستقامة في المناجاة، وفي المخاطبات، وفي التعامل، وفي الأخذ والعطاء، وفي كل تصرف للمؤمن. فإذا استحضر المؤمن قوله تعالى ﴿ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ انضبط سلوكه في كل أمر وشأن.

وهي قاعدة وقائية، وعلاجية، فإن استحسنت النفس أمراً قد احتوى على ما ليس من البر. فإنه يزجر نفسه ويؤدبها بقوله تعالى ﴿ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ وإن ناجاه أحد في أمر خارج عن البر، وكان من الإثم، قال لنفسه ولمن يناجيه ﴿ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ فإنها ضابطة وموجهة للخير. وإذا عُرِف المؤمن بهذا الْخُلُق في صفوف معارفه، فسروا وأولوا مناجاته لغيره أنها في الخير. وكان بذلك قدوة وأسوة يتحرك بها بين الناس. كما أن هذا التوجيه الكريم من الله تعالى يُظهر ويبين أن دين الله تعالى قائم على الخير، من البر والإحسان والتقوى، بالخوف من الله تعالى. فيأمن الناس المؤمن. ويزداد بذلك من الخير، وبعداً به عن الإثم، ويكون قدوة لغيره.

ثم بعد بيان الله تعالى بما يجب الحذر منه، وما يجب القيام به، يبين جَلَّ جلاله للمؤمنين ما يستعينون ويتقوون به على تطبيق ذلك والعمل به، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الزموا الخوف من الله ربكم تبارك وتعالى، واستحضروا مراقبته ومحاسبته لكم عَزَّ وجل ﴿ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ الذي سيؤول مآلكم إليه يوم القيامة، فيحاسبكم ويجازيكم على ما كان منكم. مما يبين أثر التقوى في التصرفات، وأثر الإيمان بيوم الحشر. الذي يجمع اللهُ تعالى الناس فيه جميعاً في ذلك اليوم. ثم يحاسبون، ثم الجزاء إلى الجنة أو إلى النار. فيأخذ كل منهم بما يستحقه، جزاء وفاقاً لما كان منه في الدنيا. مما يفيد الحذر والترهيب والوعظ، وأن عليكم التزام التقوى، واستحضار يوم الحشر، فإنهما عاملان رئيسان في ضبط سلوك المؤمن. اللهم اجعلنا والمسلمين من أهل البر والتقوى بعونك وتوفيقك يا رب العالمين.

ثم يزداد تحذير المؤمنين من النجوى التي تحمل الإثم والعدوان ومعصية الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك ببيان مصدر النجوى، وما ينجم عنها. مع بيان مُوجِب تركها، والبعد عنها، فيقول تبارك وتعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إنما أصل النجوى ومبعثها أنها من وسوسة الشيطان، بل ورد ذلك بأسلوب الحصر والقصر ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لإفادة أن الأصل لمبعثها أنها من الشيطان، ليحقق مآربه التي هي، كما قال تعالى ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لإدخال الحزن على الذين آمنوا بما يوسوس لهم به. بما يفيد الحذر من ذلك بعد أن كشف لكم ربكم حقائقها، وحقائق الشيطان، وأهدافه.

لأن محتوى الحزن هو القلق، وتنازع النفس بالخوف، والحسرة، فيحدث القلق والضيق، فيبتعد عن إدراك دلالة الإيمان بالقضاء والقدر، وعن التحلي بالصبر، وأخلاق الحلم والروية، ويستثير بها الغضب. وعدم إدراك أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. فيجعل المرء بذلك يتصرف خارج عن ركائز العقل والإيمان، وضبط النفس. كما يفيد هذا كثرة التعوذ من الشيطان، ولا سيما في المواقف التي يشعر فيها المؤمن بخواطره ووسوسته. فإنه عدو للمؤمنين.

ثم يبين تبارك وتعالى منهجية العلاج بأن تكون بتظافر أمرين: الأول: العلم بقوله تعالى ﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإن كيد الشيطان ووسوسته بإثارة الحزن ليس لها ضرر إلا بإذن ومشيئة الله تعالى، وبالتالي لا تلتفتوا إلى وسوسته، وإثارته للحزن. وأما الأمر والركيزة الثانية: فإنها مبنية على التوكل على ربكم سبحانه وتعالى ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي: أوكلوا أمركم إليه سبحانه وتعالى، وفوضوا جميع مطالبكم ورجائكم وخوفكم وشؤنكم إلى عونه وتسديده، وحفظه، وعلى قدرته عَزَّ وجل في دفع الشرور والأحزان، وأن يتعوذ المؤمن من الشيطان الرجيم، ومن كل شر، ومن كل خوف، ومن كل حزن.

فإن الله تعالى رب كل شيء ومالكه، فهو القادر على دفع الشيطان ووساوسه وجميع الشرور والأحزان والهموم، فالتجئوا إلى ربكم أيها المؤمنون بالتوكل عليه سبحانه وتعالى، والاستعانة به. كما ورد في الحديث، عندما قال صلى الله عليه وسلم (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل. وضلع الدين وغلبة الرجال)[١] فالحزن متعلق بما مضى، والهم متعلق بما هو قادم، وما هو فيه الإنسان. وأما العجز: فيكون حين تُوجد الإرادة مع ضعف القدرة، أو عدم وجودها، فتحول قلة القدرة بين المرء وبين تحقيق مراده. وأما الكسل فهو وجود القدرة، مع عدم وجود الإرادة. فهي تمثل حالات الإنسان التي قد يكون عليها. فيسأل المؤمن ربه سبحانه وتعالى عونه، وتوفيقه.

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٦٣٦٩)

كما أن في ارتباط التوكل بالإيمان، ما يبين أنه من حقائق الإيمان. وبالتالي فإن تحقق اعتقاده في العبد دلالة على علو الإيمان، كما قال تعالى ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ بما يفيد أن غير المؤمن لا يتوكل على الله تعالى. وبما يفيد أيضاً أن من حقائق الإيمان التوكل. فإن التوكل على الله تعالى هو تطبيق عملي لحقائق الإيمان، وينتج ويتحقق به شجاعة القلب، ومواجهة الأمور بقوة الصبر، والاعتماد على الله تعالى، ونفي الحول والقوة من المتوكل، وتفويضها وإخلاصها لله تعالى، فهو سبحانه وتعالى صاحب القوة، والقادر على تحويل حال المؤمن، بل وحال المؤمنين جميعاً إلى كل خير. فله الملك والقدرة والسلطان الذي لا ينازعه فيه أحد أبداً.

ثم يتكرر الخطاب والنداء للمؤمنين مرة ثانية، وبتوجيهات أخرى، يحتاجها المؤمن في حياته وتعاملاته مع غيره. فيقول تبارك وتعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ يا أيها الذين صدقوا بربهم سبحانه وتعالى، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبأركان الإيمان، وعملوا بدين الله رب العالمين، تأدبوا بأدب وأخلاق التوسعة لغيركم للجلوس معكم في المجالس.

وقد بدأ الخطاب للمؤمنين بمناداتهم بصفة الإيمان، وبياء النداء. فقال تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ ﴾ إذا طُلب منكم في مجالسكم التي تجلسون فيها أن ﴿ تَفَسَّحُواْ ﴾ أي: أن تتوسعوا بإيجاد الفسحة من المكان لغيركم ﴿ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ ﴾ أي: في مجالسكم التي تجتمعون فيها، بأن تفسحوا لغيركم بالجلوس معكم، ممن يَقْدِمُ عليكم في مجالسكم ﴿ فَٱفْسَحُواْ ﴾ فتجاوبوا بأن تُوسِّعُوا لبعضكم البعض، حتى يجد مكاناً بينكم، فيجلس القادم معكم.

ومن غزارة البيان أنه لم يحصر ذلك في مجالس معينة ومحددة، بل وردت مطلقة، لتستوعب كل مجلس يجتمع المؤمنون فيه. قال القرطبي رحمه الله تعالى: الصحيح في الآية أنها عامة في كل مجلس اجتمع المسلمون فيه للخير والأجر، سواء كان مجلس حرب، أو ذكر، أو مجلس يوم الجمعة[1] أو للطعام، أو لأي أمر من أمور المسلمين. ولا يعني هذا أن يترك مكانه لغيره، بل المطلوب هو التوسعة. وهناك أحكام فقهية خاصة بالقيام من المجلس للغير، تناولها الإمام القرطبي رحمه الله تعالى عند شرحه لهذه الآية. وهذا والله أدب رفيع، يغرس في المؤمنين التواد، والتراحم، والتقدير، مما يُعلِّم المؤمن أدب المجالس، مع من يقدم عليهم. كما أن في ذلك إكرام للقادم، وإكرام لصاحب المجلس. ورفع ما يكون في خاطره من استيعاب المجلس لمن يقدم. كما أن في هذا نهي

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٣/١٧)

عن عدم الإفساح، أو تعمد التضييق على القادم. وهذا من ارتقاء أخلاق الإسلام بالمسلمين، وأن المسلم يرتقي ويعلوا بأخلاق وآداب الإسلام، وبما تجلب محبة الغير له، وإعزازه وإكرامه.

ثم يبين تبارك وتعالى معيته لمن يفسح لغيره في المجلس. فقال تعالى ﴿يَفۡسَحِ ٱللَّهُ لَكُمۡ ﴾ فإن ربكم يكافئكم بأن يفسح لمن فسح لأخيه، ويوسع لمن وسَّع لأخيه في المجلس. ووردت المكافأة بفسحة الله تعالى لمن أفسح مطلقاً، لتشمل إعانته وفسحته في المجلس، وتشمل ادخال السرور عليه، لأن السرور هو فسحة في القلب، ولتشمل الإنعام عليه بفسحة الرزق، وفي الآخرة بعظيم المكافأة. وهذا من كرم الله تعالى، وارتقائه بالمؤمنين في أخلاقهم وآدابهم، وتوادهم.

وإذا طُلِب منكم القيام فقوموا ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ ﴾ والنشوز هو القيام مع المفارقة للمكان. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي: انهضوا للقتال. وقال قتادة: إذا دُعِيتم إلى خير فأجيبوا[1] قال السعدي رحمه الله تعالى: أي: إذا قيل: ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم لحاجة تعرض ﴿فَٱنشُزُواْ ﴾ أي: فبادروا للقيام، لتحصيل تلك المصلحة، فإن القيام بمثل هذه الأمور من العلم والإيمان. والله تعالى يرفع أهل العلم والإيمان درجات، بحسب ما خصهم به من العلم والإيمان[2] وهذا من الآداب التي يُعَلِّم اللهُ تعالى بها المؤمنين، حتى لا يكن في قلوبهم شيء على من طَلَبَ منهم القيام من المجلس، مراعاة لحال الطالب.

ومن دقائق البيان أيضاً أنه لم يحدد البيان الكريم سبب وعلة النشوز من المجلس، ليستوعب كل سبب تَطَلَّب الأمرُ منه أن ينشز ويقوم من المجلس، كالتنحي إلى مكان آخر. وأيضاً لمعالجة جميع أحوال ما يطرأ في المجلس. وهذا الاستيعاب من الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، في استيعاب سياقه لكل الأحوال والمقاصد المقصودة. فقد تظافر الإعجاز البياني مع الإعجاز في دقائق الأخلاق، ومعالجة قضايا المجتمع المسلم التي تحفظ عليه تماسكه وتواده. مما يبين أهمية العناية بترابط المجتمع المسلم، وتماسكه، ورعايته بمكارم الأخلاق. وأن من مقاصد الدين هو التلاحم والتراحم بين المؤمنين. وأنه يجب على المؤمن أن يتجنب إضعافها أو هدمها بأي وسيلة. وأن الله تعالى يجزي أصحاب الأخلاق الفاضلة بما يستحقون من الرفعة في الدنيا والآخرة.

ثم ينتقل التوجيه البياني الكريم إلى إظهار منزلة أهل الإيمان وأهل العلم، فقال تعالى ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ ﴾ يرفع الله تبارك وتعالى المؤمنين ﴿مِنكُمۡ ﴾ أيها الناس جميعاً، وذلك لإيمانهم وامتثالهم لربهم، بما يفيد الانتباه إلى منزلتهم بالتخصيص والعناية. فإن الله تعالى يرفع شأنهم،

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٣٤٨-٣٤٩)

(٢) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥/١٩٦)

ثم عطف عليهم أهل العلم من المؤمنين، فقال تبارك وتعالى ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ وكذلك يرفع ربكم درجات الذين حَصَّلُوا العلم، بأن يرفعهم درجات عالية عن غيرهم في الدنيا والآخرة. وقد وردت الدرجات بصيغة الجمع، ليفيد تعددها وكثرتها في نوعها وعلوها، وفي تتاليها في الدنيا ولآخرة. قال الشوكاني رحمه الله تعالى: ومعنى الآية: أنه سبحانه وتعالى يرفع الذين آمنوا على الذين لم يؤمنوا درجات. ويرفع الذين أُوتوا العلم على الذين آمنوا درجات. فمن جمع بين الإيمان والعلم رفعه الله تعالى بإيمانه درجات، ثم رفعه بعلمه درجات. وقال: والأولى حمل الآية على العموم في كل مؤمن، وكل صاحب علم من علوم الدين، من جميع أهل هذه الملة. ولا دليل يدل على تخصيص الآية بالبعض دون البعض[1] مما يبين عظيم منزلة أهل الإيمان عند الله تبارك و تعالى، وكذلك منزلة أهل العلم، ومنزلة العلم، والحث على ابتغائه وطلبه، والتعب من أجل تحصيله ونشره.

ومن دقائق البيان الكريم أن الله تعالى أدخل لفظة ﴿مِنكُمۡ﴾ في السياق، بالرغم من أنه بالإمكان الاستغناء عنها، لتعطي فائدتين عظيمتين: إحداهما: التخصيص للمؤمنين من بين جميع الناس، وكذلك لمن حَصَّل العلم مع الإيمان من بين المؤمنين جميعاً. لرفع منزلة الإيمان، ثم منزلة من جمع بين العلم والإيمان. والفائدة الثانية: للتحضيض، وحث غيرهم إلى مما ثلتهم في الإيمان وطلب العلم، وذلك بصيغة التبعيض ﴿مِنكُمۡ﴾ لتقتفوا أيها الناس أثر المؤمنين فتتابعوهم في الإيمان. ثم أيها المؤمنون تابعوا من طلب العلم من أهل الإيمان، واقتفوا أثرهم. وفي ذلك بيان لعناية الله تعالى بالعلم وأهله، وكذلك التشجيع على طلبه. فقد أعطى وجودها دلالات عظيمة.

مما يرغب غير المؤمنين في الإيمان، ويرغب المؤمنين في تحصيل العلم الذي ينتفع الناس به في دنياهم وفي آخرتهم. مما يبين أن دين الإسلام هو دين الحق والعلم، إذ رتب عليه ارتفاع الدرجات مطلقاً، فلم يحصرها في الدنيا فقط، أو في الآخرة فقط، وإنما وردت عامة، ليجتمع لهم الفضل في الدارين معاً.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بأنه عليم بكل ما يكون من عباده، من خير أو شر، فلا يخفى عليه شيء أبداً فقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ إن ربكم الله سبحانه وتعالى بكل ما تعملون عليم. أي عالم بمواقعكم وخفاياكم، وخفايا الأشياء. فمن كانت هذه صفاته المجيدة سبحانه وتعالى، فلا يغيب عنه شيء أبداً، فهو خبير بكل ما يكون من العباد. فيا أيها الناس إن الله تعالى بكل ما يكون منكم عليم به، فلا تخفى عليه خافية منكم، ما ظهر منها وما بطن. لتشمل السرائر والنوايا، وما يتحدث به القلب، ولم ينطق به. مما يفيد احذروا من سيئات الأعمال، وعليكم بأطيب الأعمال، فإنها لا تخفى على ربكم جَلَّ جلاله.

---

(١) الشوكاني، فتح القدير (١٨٩/٥)

والخبير في قوله عَزَّ وجل ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ هو إحاطة علمه سبحانه وتعالى بظواهر الأشياء وبواطنها. وعالم بمواقع الأمور، وخفايا الأشياء. كأعمال القلوب، والخواطر. فأوقع دلالة لفظ الخبير على أعمال العباد الظاهرة. وهذا من فضله وكرمه عَزَّ وجل. فإنه يحصي عليكم حتى دقائق أعمالكم، فلا يفوت منها شيء، من خير أو شر، وأنكم محاسبون ومجزيون على ذلك. ففي ذلك ترغيب في عمل الصالحات مهما صغرت، وترهيب من المعاصي مهما صغرت وخفيت. وفي هذا الإخبار الدقيق ما يغرس في الْمُخَاطَب الاجتهاد في الطاعة، لأنه يعلم أن الله تعالى به لخبير، فلن يفقد ولن يضيع من سعيه شيء أبداً. كما يغرس فيه الانتباه، واليقظة، والتحرص من فعل الذنوب، حتى من أصغر الصغائر، والتوقي منها بكل حذر، وكذلك بأن لا يحتقر من المعروف شيئاً أبداً، مهما كان في نظره زهيداً، فإن الله تعالى يُثيب عليه، ويضاعفه أضعافاً مضاعفة. وفي هذا بيان لكمال قدرة الله تعالى ولطفه وعلمه الذي شمل جميع مخلوقاته، وتحركاتهم، وأماكنهم، فلا يغيب عنه من خلقه شيء، وهذا العلم بأن الله تعالى خبير يقوي إيمان العبد، ويغرس فيه الحرص، والاجتهاد في الطاعة، والبعد عن المعصية. فسبحان الله الخبير العليم العظيم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ فَإِذۡ لَمۡ تَفۡعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾﴾

ثم يتكرر النداء للمؤمنين للمرة الثالثة، ليعلمهم تعظيم مناجاة الرسول صلى الله عليه وسلم. فيقول الله تبارك وتعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ فَإِن لَّمۡ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ يا أيها الذين صدقوا بالله ربهم، وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وبأركان الإيمان، وعملوا بدين الله رب العالمين، إذا أردتم الحديث مع النبي صلى الله عليه وسلم في أمر على سبيل المناجاة سراً فتصدقوا بصدقة بين يدي مناجاتكم لرسوله صلى الله عليه وسلم.

فقد خاطبهم سبحانه وتعالى بصفة الإيمان التي هي من أرقى درجات الوصف، وكذلك ما يستلزمه هذا الوصف من الامتثال بما آمنتم به ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ وكذلك تَحْمِلُ في دلالتها التكريم للمُخَاطَبين، إذ ناداهم ربهم بصفة الإيمان، وهي رتبة عظيمة ومنحة كريمة أن ينادي ربنا تبارك وتعالى عباده برتبة الإيمان. وهذا النداء يحمل في دلالته لفة الانتباه، ووجوب إرعاء السمع، وأخذ الأمر بجد فيما تضمن من توجيه وبيان، بما يفيد أخذه بعزم وأهمية وجدية.

فيا أيها الذين آمنوا إذا أردتم الحديث مع النبي صلى الله عليه وسلم في أمر على سبيل المناجاة سراً ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ فتقدموا بمقدمة قبل المناجاة، بأن تتصدقوا بصدقة، ثم تأتون لمناجاة رسولكم صلى الله عليه وسلم. وهنا لم يحدد سبحانه وتعالى نوع ومقدار الصدقة، وذلك مراعاة لاختلاف أحوال المؤمنين في الكثرة والقلة. وهذا من رحمة الله تعالى. مما يُعَلِّم المؤمن أنه عندما يطلب أو يحرر أمراً أن يكون مشتملاً على رحمة الغير، بمراعاة اختلاف أحوالهم وقدراتهم. أي: بما يراعي فيه واقع الحال، وسواء كان ذلك داخل الأسرة أو في مجال المهنة، أو في أي حال من أحوال التعامل، وفي أي جهة كانت. فإن الله تعالى لم يشق على عباده.

ثم نسخ الله تعالى هذا الحكم، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إن في كتاب الله عَزَّ وجل لآية ما عمل بها أحد قبلي، ولا يعمل بها أحد بعدي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾ قال فُرِضَت، ثم نُسخت. لأنه رضي الله عنه أول من عمل بها، إذ قدَّم ديناراً صدقة، ثم أُنْزِلَت الرُّخصَة [١] وهذا من فضل الله تعالى. ولكنه أعلم ونبه المؤمنين سبحانه وتعالى برفعة منزلة النبي صلى الله عليه وسلم، وبرحمته التي رفع بها التكليف، ليتبين أن الله تعالى يحكم ويشرع بما يشاء، وينسخ ما يشاء جَلَّ جلاله، وليعرفوا نعمة النسخ والتخفيف.

ثم بعد الأمر بالصدقة ينتقل التوجيه الكريم إلى التعليل الذي يجعلهم يزدادون مبادرة. فقال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ﴾ فإن هذه الصدقة التي أُمرتُم بها، هي دلالة على تعظيم مقام النبي صلى الله عليه وسلم. وقد اشتملت على منفعتين لكم، إحداهما: أنها ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ تصيبون به فضل لكم. من غير تحديد وتعيين لنوعه ودرجته، ليعطي دلالة كثرته وعظمته، فاغتنموه. وفي ذلك استحثاث للصدقة مقابل الخير الذي تنالونه، خاصة وأن القائل والمعطي له هو أكرم الأكرمين سبحانه وتعالى. والثاني هو: ﴿ وَأَطْهَرُ ﴾ يطهر الله تعالى به قلوبكم ونفوسكم. وقد ورد التطهير عاماً، ليدل على سعته وعظمته. وهذا فضل من الله تعالى مقابل استجابتهم لأمره سبحانه وتعالى لهم بالصدقة. مما يفيد أن في الاستجابة لله تعالى خير عظيم للعبد في الدنيا والآخرة.

ثم من رحمة الله تعالى أنه رفع التكليف عن تقديم الصدقة لمن لا يستطيع، فقال تعالى ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ فمن لا يستطيع فإنه معذور من الله ربكم سبحانه وتعالى ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٢/٤٨٢)

فإن ربكم الله يغفر الذنوب لمن استغفر وتاب، ورحيم بعباده. فإن من رحمته أنه سبحانه وتعالى قد نسخها، فلم يعمل بها غير ذلك الموقف من علي رضي الله عنه.

ومن رحمة الله تعالى بالمؤمنين أن نقلهم إلى ما يتحصلون به على عظيم الأجر من العبادات: من إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة والامتثال لربهم ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فنقلهم من شأن الصدقة إلى غيرها من العبادات. فقال تعالى ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ فيا أيها المؤمنون ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾ أخفتم الفقر والفاقة والعيلة من الصدقة ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ﴾ أخفتم على أنفسكم بهذه الصدقة، من أن تُقَلِّل أموالكم، وتحصل لكم الفاقة؟ سؤال استحثاث وتنبيه بعظيم علم الله تعالى بما في القلوب. وهو استفهام تقريري. قال ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾ أي: أبخلتم بالصدقة. وقيل: خفتم. والإشفاق الخوف من المكروه[1] والشفقة من قوله تعالى ﴿ ءَأَشْفَقْتُمْ ﴾ محلها القلب الذي لا يعلم مكنونه إ لا الله سبحانه وتعالى.

ثم انتقل البيان الكريم بالمؤمنين إلى حال عدم إيتاء الصدقة، فقال جَلَّ شأنه ﴿ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ ﴾ فإن لم تعملوا بما أمركم ربكم به من الصدقة التي تقدمونها بين يدي النجوى ﴿ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ ﴾ وتجاوز ربكم عنكم، بأن نسخ عنكم وجوب الصدقة بين يدي مناجاتكم للرسول صلى الله عليه وسلم، ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ قال الشوكاني رحمه الله تعالى: إذا وقع منكم التثاقل عن امتثال الأمر بتقديم الصدقة بين يدي النجوى، فأثبتوا على إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما تُؤمرون به، وتُنهون عنه[2] فبدأ جَلَّ شأنه بالصلاة ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ وذلك بأداء الصلاة وفق ما شرع لكم ربكم، وورد الأمر لها بفعل الإقامة ﴿ فَأَقِيمُواْ ﴾ التي تجمع جميع ما تقوم عليه الصلاة، من الأركان والواجبات والمستحبات، بما يفيد الإقامة الخالية من الخلل. فلا تُخِلُّوا بها، بل أقيموها إقامة ذات عناية واهتمام. مما يبين أهمية الصلاة، إذ كثيراً ما يقترن الأمر بها في القرآن بالإقامة. اللهم اجعلنا والمسلمين أجمعين من عبادك الذين يقيمون الصلاة على الوجه الذي يرضيك عنا.

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٩٦/١٧)

(٢) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (١٩٠/٥)

ثم أمر تبارك وتعالى بأداء الزكاة، فقال عَزَّ وجل ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: دفع الزكاة لمستحقيها. والمراد بالزكاة المذكورة، هي: المفروضة. وتستوعب كذلك معنى: الصدقات عموماً. وإخلاصها لله تعالى. مما يدل على أهمية الزكاة إذ عطفها تبارك وتعالى على إقامة الصلاة.

ثم تلى ذلك التخصيص بالتعميم لجميع أنواع الطاعة له تبارك وتعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: امتثلوا لله تعالى بالطاعة، وامتثلوا للرسول صلى الله عليه وسلم بالطاعة والاستجابة الظاهرة والباطنة، المتمثلة في صدق الاعتقاد، وسلامة النية؛ المتوافقة مع العمل، وفق شريعة ربكم. وقد عطف الله تعالى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم على طاعته عَزَّ وجل، ليتبين أن طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام هي من طاعة الله تعالى، فمن لم يستجب للرسول صلى الله عليه وسلم فإنه ما استجاب لله تعالى. وأن هذا هو ما يجب عليهم وعلى كل أحد.

ثم يخبرهم الله تعالى بأنه مُطَّلِعٌ اطلاعاً كاملاً على بواطنهم كما هو مطلع وعالم بظواهرهم، فالأمر سواء عند الله تعالى، فلا يخفى عليه شيء من شأنكم ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ فإن الله تعالى خبير بكم، وبأعمالكم، فلا يخفى عليه شيء من أعمالكم وأفعالكم وأقوالكم التي تحدث منكم، فاحذروا من المخالفة لما ينهاكم عنه ربكم سبحانه وتعالى. واعملوا بالطاعة فإنه عليم بها، فيجازيكم ويثيبكم عليها. مما يغرس في الْمُخَاطَب الاجتهاد في الطاعة، لأنه يعلم أن الله تعالى به لخبير، فلن يفقد ولن يضيع من سعيه شيء أبداً. كما يغرس فيه الانتباه، واليقظة، والتحرص من فعل الذنوب، حتى من أصغر الصغائر، والتوقي منها بكل حذر، وكذلك بأن لا يحتقر من المعروف شيئاً أبداً، مهما كان في نظره زهيداً، فإن الله تعالى يُثيب عليه، ويضاعفه أضعافاً مضاعفة. وفي هذا بيان لكمال قدرة الله تعالى ولطفه وعلمه الذي شمل جميع مخلوقاته، وتحركاتهم، وأماكنهم، فلا يغيب عنه من خلقه شيء، وهذا العلم بأن الله تعالى خبير يقوي إيمان العبد، ويغرس فيه الحرص، والاجتهاد في الطاعة، والبعد عن المعصية. فسبحان الله الخبير العليم العظيم.

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ
(١٤) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (١٥) ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ فَلَهُمۡ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٦) لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ
فِيهَا خَٰلِدُونَ (١٧) يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡۖ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ

ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾

يتوجه الخطاب الكريم من الله سبحانه وتعالى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن بيان شناعة حال المنافقين في توليهم للكفار من اليهود والنصارى، والمشركين الذين غضب الله تعالى عليهم، فاتخاذهم أولياء لهم، فنالوا لعنة الله تعالى وغضبه. فقال الله تبارك وتعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ألم تر أيها الرسول ببصرك وبصيرتك حتى انتهى إلى علمك مشاهد أحوال المنافقين الذين تولوا مناصرة القوم الذين قد غضب الله تعالى عليهم، وهم اليهود والنصارى والمشركين، فاتخذوهم حلفاء لهم، فإن هؤلاء المنافقين ليسوا منكم أيها المؤمنون، وليسوا من اليهود والنصارى، فليسوا على ملتهم، فهم متصفون بصفة النفاق، يُظهرون لكم الإيمان، ويبطنون الكفر.

وقد بدأ البيان العظيم الكريم في تقرير حال المنافقين بصيغة السؤال الموجه للرسول صلى الله عليه وسلم، ولكل أحد من المؤمنين ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وهو سؤال استنكار وتقبيح لحال المنافقين. ألم تتأمل؟ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ وهو تأمل من التعجب والاستنكار من حال أولئك المنافقين في مسلكهم النفاقي، ليُظهر سبحانه وتعالى حالهم النفاقي بالإنكار عليهم، من خلال صيغة التعجب لسوء فِعَالِهم، والكشف عن حالهم، وتعريتهم للمؤمنين. وهو سؤال استنكار ولوم لحالهم، وتقبيح لمسلكهم النفاقي، بدليل توليهم اليهود والنصارى وعموم أعداء الدين، واتخاذهم حلفاء لهم. وقد بدأ التوجيه الكريم بلفت الانتباه، من خلال السؤال الموجه للرسول صلى الله عليه وسلم، وللمؤمنين. وهو سؤال استنكار وتقبيح لهم عن علة توليهم للكفار. وكذلك هو سؤال لشد الذهن والحس والانتباه إلى الذي يذكره الله سبحانه تعالى عنهم. وهو كذلك استفهام توقف وتدبر لهم عن طريق التأمل في مسلكهم الذي اتخذوه. مما يفيد أنه يجب عليكم أيها المؤمنون الانتباه والحذر منهم.

فإن الذين تولوا في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا ﴾ هم أهل النفاق الذين تولوا الكفرة بالولاء والمناصرة، واتخذوهم حلفاء لهم. وأما القوم الذين قال الله تعالى عنهم ﴿ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم ﴾ هم جميع من كفر، من اليهود والنصارى والمشركين. لأنهم مغضوب عليهم من الله سبحانه وتعالى، ومن رسوله صلى الله عليه وسلم. ومن دقائق البيان الكريم أن وصفهم الله تعالى بأنهم مغضوب عليهم من ربهم سبحانه وتعالى. بما يفيد أن تولي المنافقين لأولئك المغضوب عليهم هو اختيار منهم لأعداء الله تعالى، وتفضيلهم لهم على أوليائه المؤمنين، وليتبين شدة كفر المنافقين، وأن إظهار الإيمان منهم هو فقط لتحقيق مآربهم الخاصة بهم. بدليل توليهم

للمغضوب عليهم، وهم اليهود خاصة وعموم الكفرة. وليتبين أن المنافقين قد بلغوا مبلغاً كبيراً في القبح وفي سوء الطوية، والمكر والخداع.

ثم زاد التشنيع على المنافقين بتعرية خداعهم، وذلك بإظهار حالهم في التلاعب والمخادعة، وكشف حالهم، بأنهم يظهرون أنهم منكم، وفي نفس الوقت يتحالفون مع المغضوب عليهم ضدكم. فقال تعالى ﴿ مَّا هُم مِّنكُمْ ﴾ فإن هؤلاء المنافقين ليسوا منكم، أي: ليسوا بمؤمنين. وأيضاً ﴿ وَلَا مِنْهُمْ ﴾ وليسوا على ملة اليهود، لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وباطنهم الكفر. ومن دلائل نفاقهم أنهم ﴿ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ أي: فإن هؤلاء المنافقين يحلفون على الكذب المخالف للصدق، وهم على يقين من أنهم كاذبون في حلفهم بالله تعالى. إذ يحلفون للمؤمنين بأنهم منهم، وهم يعلمون أنهم يكذبون في حلفهم هذا، وأنهم ليسوا بصادقين. وبهذا قد كشف الله تعالى سرهم. فكان هذا الكشف مُوجب أن يؤمنوا، ويقلعوا عن النفاق، بهذه الدلائل العظيمة من الله تعالى الذي كشف سرائرهم. مما يبين عظمة علم الله تعالى بخفايا جميع عباده. فلا يخفى عليه منهم شيء أبداً سبحانه وتعالى.

ثم يخبر الله تعالى بما أعد لهم من العذاب، فقال تعالى ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًاۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أعد الله تعالى لهؤلاء المنافقين عذاباً بالغاً في شدته وألمه. إنه ساء الفعل فعلهم بما كان منهم من النفاق، الذي أغضب وأسخط عليهم ربهم سبحانه وتعالى. ويعلل سبحانه وتعالى سبب ذلك بأنهم ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ اتخذ هؤلاء المنافقون أيمانهم وقاية وسترة، ليتقوا بها القتل. إذ جعلوا أيمانهم التي يحلفونها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين خديعة يحتمون بها، ويدفعون عن أنفسهم وأهليهم القتل، وعن أن تُسبا أموالهم منهم. فإذا ظهر وبرز النفاق منهم، أقسموا بالله تعالى للمؤمنين بأنهم منهم ﴿ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي: صدوا الناس عن دين الإسلام. قاله السدي. وقيل صدوا المؤمنين عن جهادهم بالقتل، وأخذ أموالهم[١] فيصدون الناس عن دين الله تعالى بسبب ما يصدر منهم من التثبيط والتهوين وإضعاف شوكة المؤمنين، وكذلك يُظهرون الإسلام ليتمنعوا به عن قتلهم وسبي أموالهم من المؤمنين، أي: حفاظاً على أنفسهم وأموالهم ﴿ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ فلهؤلاء من الله تعالى العذاب الذي تحصل به لهم الإهانة والمذلة من شدته، ومن نوعه، جزاء لما كان منهم في الدنيا. فهذا وعيد وتهديد لهم، وكان الأولى بهم أن

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٧/٧)

يعزز هذا البيان الرباني عندهم جانب الإيمان، ولكنهم أحبوا الدنيا وزينتها، وفضلوها على الآخرة. كما يفيد أن الله تعالى قد يمهل العباد حتى إذا أخذهم فإنه يأخذهم بعذاب شديد ومهين لهم.

وبعد أن ذكر تبارك وتعالى حال المنافقين مع المؤمنين، واتخاذهم الأيمان وقاية وستراً لأنفسهم وأموالهم، وما أعد الله تعالى لهم من عذابه المهين والشديد والأليم، فإن السياق القرآني العظيم ينتقل إلى كشف الستار عما يتوهمون حيال أنفسهم وأموالهم. فقال تعالى ﴿ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ لن تدفع عنهم أموالهم وأولادهم شيئاً من عذاب ربهم العزيز العليم. لأن المال والأولاد مما يندفع به الشر بين الناس، إما مهابة لذوي المال، وكثرة الأولاد، أو لما يُتَحَكَّم به في شراء الذمم، أو يتقوى به في شراء القوة من الأسلحة والعتاد، ولكن لن ينتفعوا به عند الله تعالى، ليدافعوا به عن أنفسهم، ولو ﴿ شَيۡـًٔا ﴾ من عذاب الله تعالى. كما قال تعالى ﴿ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا ﴾ نفياً قاطعاً من الانتفاع بالمال والولد لهؤلاء المنافقين والكافرين.

فابتدأت الآيات الكريمات في هذا المقطع ببيان انقطاع الناصر والمعين من الأموال والأولاد للمنافقين وللكافرين عموماً، فإنها لن تنجيهم من عقوبة الله تعالى إذا أحلَّها بهم عاجلاً في الدنيا أو في الآخرة. فليس الأمر كما يتصورونه في الدنيا من الأسباب التي ينتصر ويتقوى فيها الإنسان بماله وولده على غيره من البشر، فليس الأمر كذلك أمام أمر الله تعالى، فلن تدفع عنهم أموالهم وأولادهم من عذاب الله تعالى شيئاً. وهذا النفي هو أسلوب بياني، ينفي به المقاييس الدنيوية الباطلة أمام إرادة الله تعالى.

مما يبين انتفاء الدفع والنفع حتى عن الجزء اليسير ﴿ لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا ﴾ فلا أمل في قيمة المال إذا لم يقبل اللهُ تعالى منه شيئا، ولا نفع له في الآخرة ما لم يكن في مساره الشرعي الذي يرضى الله تعالى به عَزَّ وجل عن صاحبه. بعكس أموال المؤمنين التي ينتفعون بما قدموا منها لآخرتهم، ولو كانت يسيرة. وكذلك عدم انتفاع هؤلاء المنافقين بأولادهم، فلا نفع لهم بهم في الآخرة، بينما كانوا ينتفعون بهم في الدنيا، ويدافعون بهم الشر الذي يصيبهم، ويستجلبون بهم ما يحبون من متاع الدنيا. ويستخدمون النفاق من أجل المحافظة عليهم. بينما المؤمنون ينتفعون بدعاء أولادهم، وبما قدموا لهم من تربية وأعمال صالحة.

ثم بين تبارك وتعالى حال وجزاء الكافرين في الآخرة ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ فأولئك محكوم عليهم بالعذاب في النار، ومصاحبتهم لها مصاحبة دائمة، وأنهم ماكثون فيها بالخلد الدائم المؤبد، الذي لا ينقطع، فلا يخرجون منها أبداً. اللهم أجرنا من النار. وأدخلنا الجنة مع الأبرار يا عزيز يا غفار.

ويُستفاد من ذلك أن المؤمن إذا أراد اللهُ تعالى نُصرتَه، نفعه في الدنيا بالأسباب، ونفعه في الآخرة بما قَدَّمَ وأبقى من خير في الدنيا، كالولد الصالح يدعو له، أو مال طيب أنفقه في سبيل الله تعالى، أو وقف أوقفه لله عَزَّ وجل، فيجد المؤمن ثوابه أمامه يوم القيامة. فنفى الله تعالى صورة القوة والنصرة الدنيوية عن المال والأولاد للكفار سواء في الدنيا، أو يوم القيامة. فلا نفع لهم بها في الآخرة البتة، وإن أراد الله تعالى بالكافر عقوبة في الدنيا، فلن يستطيع ماله ولا ولده نصرته، وربما كانوا نقمة عليه. بل إن الكافرين وقود النَّار يوم القيامة. نعوذُ بالله من النار. وفي هذا تحذير من الانخداع بالمال والأولاد والجاه، وكل قوة مادية ومعنوية أمام عقوبة الله تعالى.

وفي هذا ما يدل على فائدة نزول القرآن متتابعاً، منجماً، ليعالج واقع ما كان يحدث للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين، ولتسلية النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، وتثبيتاً لهم. وأيضاً ورود البيان الكريم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، بما يعالج بها قضايا المؤمنين عبر التاريخ، حتى يكون آية ودليلاً بأن هذا القرآن العظيم كلام الله رب العالمين، وأنه لكل زمان ومكان.

كما أن في ذلك بيان للمؤمنين بحال الكافرين، من أنهم سَيُحْشَرُون إلى العذاب المهين في جهنم يوم القيامة. وأن أموالهم وأولادهم لن تغني عنهم من عذاب الله تعالى شيئا. وفيه كذلك بيان للكافرين بحالهم في الآخرة. ليكون ذلك نذيراً لهم، وحجة قائمة عليهم، بل وفيه تقرير إهانتهم وهزيمتهم قولاً ووعداً من الله تعالى، ثم تقريره واقعاً وفعلاً، ليكون آية ونذيراً، وحجة قائمة عليهم، وبياناً واضحاً من أن القرآن الكريم حقٌ وصدقٌ، وأن محمداً عليه الصلاة والسلام حقٌ وصدقٌ، وأنه رسولٌ ونبيٌ، صلى الله عليه وسلم.

ثم يتدرج البيان إلى تفاصيل حال المنافقين يوم القيامة، فيقول جَلَّ شأنه ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ واذكر أيها الرسول صلى الله عليه وسلم يوم يبعثهم الله تعالى جميعاً من قبورهم يوم القيامة، فيخبرهم بما صنعوا في حياتهم الدنيا. وإن من شدة كذبهم النفاقي أنهم ينكرون الذي كان منهم أمام الله تعالى، ويحلفون لربهم كذباً وبهتاناً: من أنه ما كان منهم ذلك النفاق. فيقول عَزَّ وجل ﴿ فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ﴾ فيحلفون لربهم كذباً وبهتاناً في ذلك الموقف الرهيب كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا. وهذا من شدة شقائهم، وبما يدل على قوة غرورهم وجرأتهم، وأنهم يتصورون الموقف وفق ما يحلو لهم ويشتهون ﴿ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ﴾ ويحسبون أنهم بتلك الأيمان الكاذبة على شيء مما يحقق لهم النجاة من عذاب الله تعالى، كما كانوا يحسبون ذلك في الدنيا.

ثم يُعَظِّمُ اللهُ تعالى تكذيبهم، وافتراءهم، فيقول عَزَّ وجل ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ بل إنهم هم الكاذبون المتصفون بكمال الكذب. وقد ابتدأ ذلك بحرف التنبيه ﴿ أَلَآ ﴾ لإظهار الاهتمام بما بعده من بيان حال المنافقين المكذبين، المنكرين ليوم البعث، والمنكرين لحجج القرآن، ودعوة الرسول لهم صلى الله عليه وسلم، وقد أكد سبحانه وتعالى مِريتهم بحرف التوكيد (إن) الملتحق بالضمير العائد إليهم ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ ليؤكد به سبحانه وتعالى تكذيبهم ﴿ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴾ إنهم الكاملون في الكذب، والبالغون في البهتان مبلغاً متناهياً لم يبلغه غيرهم، وذلك بسبب ما كان منهم من الكذب حتى في يوم القيامة، بتلك الأيمان الفاجرة، وهم بين يدي الله عَزَّ وجل. وفي هذا تشنيع لهم، وكشف لحالهم في الآخرة. بما يتوجب عليهم الاتعاظ مما كشف الله تعالى به عن حقائقهم في الدنيا، وبما سيكون من حالهم في الآخرة.

ثم يخبر الله تعالى بعلة ما كانوا عليه من النفاق والتمادي في الكذب الذي بلغوا به مبلغاً لا يبلغه غيرهم، فقال تعالى ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ إن الشيطان قد سيطر وتغلب واستولى عليهم. والاستحواذ دليل على شدة الغلبة والاستيلاء عليهم ﴿ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ﴾ فأصبحوا مأسورين له بسبب ما كان منهم من النفاق. فبقوة استحواذ الشيطان وتملكه لهم أعماهم عن مواعظ ربهم ﴿ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ﴾ فجعلهم ينسون أوامر ربهم، بطاعته، وحسابه لهم يوم القيامة، ومعاقبته لمن اشتغل عن طاعته عَزَّ وجل، بما زينه لهم من النفاق، والكذب، والخداع، حتى تركوا أوامر الله تعالى، والعمل بطاعته عَزَّ وجل، فأصبحوا من أعوان الشيطان ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ﴾ فأولئك الموصوفون بتلك المواصفات من النفاق هم أتباع الشيطان، الموالون له، والعاملون بأوامره، المقتفون أثره، والطالبون لطاعته. ثم يخبر تبارك وتعالى بحال كل من تابع الشيطان، وصار من حزبه. فقال تعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ إن الموالين للشيطان هم الذين قد تحققت فيهم الخسارة. فإن خسارة حزب الشيطان خسارة لا تماثلها ولا تقاربها خسارة، فقد بلغت المبلغ الذي لا مثيل ولا شبيه له.

وقد أظهر الله تعالى خسارة حزب الشيطان بالدلائل التي تبين شدة وقوة الخسارة. فبدأ ذلك بحرف التنبيه ﴿ أَلَآ ﴾ لإظهار شدة الخسارة، ثم أعقبه بتأكيد البيان بحرف ﴿ إِنَّ ﴾ المؤكدة لما بعدها. وكذلك بصيغة القصر بأنهم هم الخاسرون. مما يفيد أن كل من تابع الشيطان فقد بلغت به خسارة الدنيا والآخرة مبلغها الذي بلغ منتهاه وشدته. فليس هناك أكثر خسارة من أحزاب الشيطان. ليفيد الحذر والتوقي، وكثرة الاستعاذة

منه، والالتجاء إلى الله تعالى من أن يكون للشيطان منه نصيب. اللهم إنا نعوذ بك من الشيطان الرجيم، ونلتجئ إليك منه ومن أعوانه. اللهم اجعلنا في حرزك وأمنك وأمانك وضمانك منه ومن كل شر يا رب العالمين، واجعلنا من حزبك الذي كتبت لهم الفلاح في الدنيا والآخرة.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى تفاصيل عن حال المنافقين ومسلكهم في الدنيا، وعقابهم في الآخرة، وبأن تأصل النفاق فيهم بسبب استحواذ الشيطان عليهم، ينتقل السياق الكريم إلى التهديد والوعيد من الله عَزَّ وجل لكل من يعادي وينكر ويحارب ما ورد عنه سبحانه وتعالى، وعن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، فقال عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴾ إن الذين يصادون ويعاندون ويحاربون دين الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، لهم العقاب الذي يُذلهم ويهينهم.

فإن الله عَزَّ وجل يتوعد ويعد كل من يعادي ويهاجم ويحارب وينكر ما ورد عنه سبحانه وتعالى، وعن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴾ فإنهم معاقبون بأشد الإذلال. سواء كان في الدنيا أو في الآخرة. فهم في ذلة ومهانة. مما يفيد ويبين أنه حتى وإن ظهر عليهم من علامات الخير، وكثرة الرزق في الدنيا إلا أنهم في ذلة من وجهين: الأول: ما يشعرون به في أنفسهم. والثاني: أنهم في ذل أمام المؤمنين، فيخافونهم، ويخافون بطشهم. وهذا مما يقذفه الله تعالى في القلوب. مما يبين عظيم قدرة الله تعالى، وكمال تدبيره، وأن العزة للمؤمنين في الدنيا والآخرة. وكذلك أنهم مهانون بأشد العذاب يوم القيامة. فمقابل ترفعهم تكون إهانتهم. مما يبين أهمية التواضع لشريعة الله تعالى، فإنها رفعة لمن تمسك بها، والتحذير من الترفع على منهج الله تعالى، فإن عاقبته مهانة.

ثم يبين عَزَّ وجل مظهر ذلك، مع التعليل. فيقول عَزَّ وجل ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴾ فإن ربكم قد كتب في اللوح المحفوظ، وقرر أن الغلبة له وحده لا شريك له، ولجميع

رسله السابقين كما تحقق فعلاً، وتحقق لخاتم الأنبياء والمرسلين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، ولدينه وأهل دينه. فقد تحقق ذلك كما أخبر به عَزَّ جاهه تبارك وتعالى إلى اليوم وإلى أن تقوم الساعة.

ثم يبين سبحانه وتعالى سبب هذه الغلبة التي قضى بها له عَزَّ وجل ولرسله عليهم الصلاة والسلام، فيقول جَلَّ شأنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ إن ربكم تبارك وتعالى متصف بالقوة، وكمال القدرة على تحقيق ما يريد، وأنه العزيز الذي لا يُرام ولا يُمَانَع. فأخبر جَلَّ شأنه عن كمال قوته وقدرته وعزته، فيقول عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ إن ربكم الله تبارك وتعالى متصف بالقوة، وكمال القدرة على تحقيق ما يريد، وأنه العزيز الذي لا يُرام ولا يُمَانَع، ولا يمتنع عليه شيء، فسلطانه عَزَّ وجل فوق كل سلطان، وقوته فوق كل قوة، وقدرته فوق كل قدرة. مما يؤكد ويبين أن من حارب دين الله تعالى هزمه وأذله جَلَّ في علاه. وأن من نصر دين الله تعالى بأي وسيلة حقق الله تعالى له النصر. وأظفره على من مانعه وعاداه. فأكَّد تبارك وتعالى ذلك بنون التوكيد ﴿إِنَّ﴾ التي تؤكد تحقيق وتحقق ما بعدها، مع بيان صفته سبحانه وتعالى المؤكدة لتحقق النصر بأنه القوي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ﴾ ثم أكدها بصفة عظيمة أخرى ﴿عَزِيزٌ﴾ فالعزة تقتضي التمكن والتسلط، وأنه لا أحد يستطيع أن يتسلط على ما يريده ويقضي به عَزَّ وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ فمن امتلك القوة والعزة فلا يقف أمامه شيء أبداً، فكل شيء مهزوم أمامه، لأنه تحت سلطانه وقهره عَزَّ وجل. وبالتالي لا تتمانعوا أيها المؤمنون عن الدفاع عن الدين، فإن ناصركم هو الله القوي العزيز، له كامل القوة والعزة وكمالها. وكذلك عليكم أيها المحاربون لله تعالى ولدينه العلم بأنكم محزومون. فهو تهديد وتوعد من الله تعالى لكل من يحارب هذا لدين. فسبحان الله القوي العزيز.

وهو أسلوب في غاية الإبداع من كل وجه، ومن ذلك التدرج في السياق، ببيان حال الذين يحادون الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. ثم ختام التوجيه الكريم ببيان قوته وعظمته وعزته سبحانه وتعالى، الموجبة لطاعته والامتثال لأمره، حتى وإن غابت عيون الناس عنه. لينتقل بالعباد إلى مهابته، والترهيب من قوته، ووجوب طاعته، والإخلاص له عَزَّ وجل. وكل ذلك من أجل حث الناس على طاعته سبحانه وتعالى، والامتثال لدينه، حتى يفوزوا بالآخرة. وهذا من رحمته بالعباد، إلا أن هناك من يعاند ويكابر.

ثم يختم اللهُ تبارك وتعالى سورة المجادلة بهذا التوصيف للمؤمنين الصادقين في إيمانهم. فيقول تبارك وتعالى ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ

مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ لا تجد أيها الرسول قوماً من الناس يجتمع فيهم الإيمان ونواقضه، فيؤمنون بالله ربهم، وباليوم الآخر، ثم يميلون بالمودة إلى من يعادي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

فهما أمران متضادان ومتناقضان، لا يمكن الجمع بينهما أبداً ﴿ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ لا تجد جماعة من الناس يؤمنون بالله سبحانه وتعالى إيماناً حقيقياً، بربوبيته وألوهيته، وبأسمائه وصفاته، وباليوم الآخر، وما اشتمل عليه من البعث والحساب والجزاء، وفي نفس الوقت تجدهم ﴿ يُوَآدُّونَ ﴾ من المودة والمحبة والميل إلى ﴿ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ من يعادي وينكر ويحارب ما ورد عنه سبحانه وتعالى، وعن رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فيقابلون دين الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالمعاداة.

بل حتى لو كانت صلة القرابة بينهم من الدرجة الأولى لوجدتهم يتخلون عنها، انتصاراً لله تعالى ولرسوله عليه الصلاة والسلام. فقال تبارك وتعالى ﴿ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ ﴾ حتى ولو كانوا من أقرب الناس إليهم. وبدأ البيان بالآباء ﴿ ءَابَآءَهُمۡ ﴾ الذين هم الأصل لهم، مع مالهم من قوة العاطفة من المحبة والشفقة عليهم. أو كانوا من فروعهم ﴿ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ ﴾ الذين هم فروعهم، الذين تربطهم به علاقة الشفقة والرحمة عليهم ﴿ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ ﴾ الذين تجتمع بينهم وحدة النسب، وما يتبع ذلك من المودة والتناصر والتكاتف ﴿ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡ ﴾ الذين هم قرابة الرجل الأدنون، والذين يعاشرونه ويعاشرهم. وهي أخص من القبيلة، إذ تشمل أصول وفروع الرجل. من الأولاد والإخوان، والآباء، والأعمام، والأجداد.

فمقتضى الإيمان ومتطلباته من البراءة من الكفر والشرك، والكفار والمشركين، يستوجب وجوباً إيمانياً وقلبياً، واعتقادياً عدم موالاة من يعادي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، بسبب محبة المؤمن لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم. التي هي أعلى درجات المحبة. فمقتضى هذه المحبة يتم رفض محبة أعداء الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. فالإيمان الصحيح هو الذي يخلو فيه القلب من محبة أعداء الدين، حتى ولو كانوا من أقرب الناس إليه، من الآباء والأبناء، والأخوة والعشيرة. بما يفيد أن من وجد في قلبه محبة وموالاة لمن يحادد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم فليس بمؤمن على الحقيقة، فليراجع إيمانه، ويصححه.

فهؤلاء الذين انتفت منهم محبة ومودة وموالاة من يحارب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، حتى ولو كانوا من أقرب الناس إليه نسباً، من أصوله أو فروعه، فإن لهم من الله تعالى كرامات، وأولها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ فهؤلاء هم الذين غرس وجمع وأثبت وثبت الله تعالى صدق الإيمان في قلوبهم، فلا يتزعزع أبداً، ولا تؤثر فيه الشكوك والشُّبَه. وفي تخصيص مكان الإيمان في القلب ما يفيد أن القلب هو مركز الإيمان، وأن جميع أنواع الإرادات تنبع من القلب، وتبعاً له، وبالتالي فإن سلوك الإنسان وعواطفه نابعة عما احتواه القلب. فهو المركز لحركة الإنسان وتصرفاته، بحسب ما فيه من الإيمان، أو خلوه منه.

وثاني تلك الكرامات ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُ﴾ أي: فقواهم الله تعالى ونصرهم بقوته ومعونته، وببراهينه ونوره وهداه، وتوفيقه، وبالقرآن وما فيه من التوجيه، ودلائل الإيمان، والعلم الذي يسيرون به نحو الخير، والبعد عن الشرور والمهالك. قال ابن عباس والحسن رضي الله عنهم: أنه النصر. وقال ابن الجوزي رحمه الله تعالى تعليقاً على ذلك: فعلى هذا سُمّيَّ النصر روحاً، لأن أمرهم يحيا به[1] أي: يحي بنصر الله تعالى. ونصر الله تعالى لا يحيط بأسبابه أحد من كثرته وتنوع مفرداته وأحواله التي يُوفق وينصر بها سبحانه وتعالى من وفقه جَلَّ جلاله.

والكرامة الثالثة هي: دخولهم الجنة. فقال تعالى ﴿وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ﴾ حدائق من البساتين العظيمة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ تتدفق فيها الأنهار من كل جهة. فليس فيها نهر واحد، بل ورد النهر بصيغة الجمع، ليفيد الكثرة والتعدد والتنوع. كما أفادت دلالة ﴿تَجۡرِي﴾ قوة وسرعة تدفق الماء من كثرته وقوته، ليظهر جمالها من هيئة تدفقها، وقوة والجريان من أسافل الجنة، وتحت القصور.

وأن من صفات الجنة وأهلها أنهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ أي: لا يخرجون منها أبداً، ولا يموتون أبداً، فهي حياة دائمة لا نهاية لها. بما يفيد أن هذا الفوز هو الفوز الحقيقي لا غيره، فهو فوز عظيم، بما فيه من النعيم المقيم. وفي هذا ما يحفز المؤمنين على التمسك بإيمانهم، وإخلاصهم لربهم تبارك وتعالى، بما بينه عَزَّ وجل من الحقائق القادمة للمتمسكين بحقائق الإيمان حباً لربهم عَزَّ وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم. كما أن هذا البيان يصحح مفهوم حقائق الإيمان، ويستثير غيرهم إليه، ويرغبهم في لزوم طاعته تبارك وتعالى، وهذا من رحمة الله عَزَّ وجل، وأنه ما أرسل الرسل وأنز الكتب إلا ليُنْعِم على العباد، وأن من حاد عن الطريق فعذابه بما كسبت يداه.

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٣٢٩/٧)

والكرامة الرابعة من لدنه سبحانه وتعالى هو قوله عَزَّ وجل ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ فقد اشتملت على نعمتين عظيمتين: الأولى: ﴿ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ ﴾ فقد رضي الله عنهم لطاعتهم ربهم، فَقَبِل طاعتهم، وتجاوز عن تقصيرهم وذنوبهم. أي: بطاعتهم إياه سبحانه وتعالى في الدنيا قد قَبِلَ أعمالهم، وأفاض عليهم رحمته في الدنيا وفي الآخرة. والثانية: ﴿ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ﴾ أي: نالوا ما يرضيهم. بأن تحقق لهم ما وعدهم به، ففرحوا بما أعطاهم من العاجل والآجل، في الدنيا والآخرة، فأكسبهم كمال الرضا عن ربهم سبحانه وتعالى بما ألبسهم وأغدق عليهم من فضله. ولم يحصر سبحانه وتعالى الرضا بالآخرة فقط، أو الدنيا فقط، بل ورد عاماً، ليفيد العموم والشمول، في الدنيا والآخرة.

ثم وصف تبارك وتعالى هؤلاء المؤمنين بأنهم حزبه، فقال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ ﴾ أي: أن هؤلاء المتصفون بما سبق من الصفات الكريمة، هم الموالون لربهم، الممتثلون أوامره، الذين هم جنده وأعوانه عَزَّ وجل، فينصرون دينه، وينافحون عنه، فيقابلهم سبحانه وتعالى بنصره وهدايته وتوفيقه لهم. ومن جلال مكانتهم عند ربهم أن نسبهم إليه عَزَّ وجل، تشريفاً وتعظيماً لمقامهم ومنزلتهم ومكانتهم. ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ ﴾ هؤلاء هم حزب الله تعالى، وليس غيرهم، فأفاد التخصيص بالتعيين والانتساب إليه جَلَّ جلاله. فاللهم اجعلنا من حزبك يا رب العالمين، بفضلك وكرمك يا رب العالمين.

ثم يخبر جَلَّ جلاله بأن حزبه هو الغالب، وهو الفائز على كل حزب، فقال تبارك وتعالى ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ إن الفوز بالفلاح في الدنيا والآخرة هو لحزب الله تعالى، وليس لغيرهم. وقد أفاد حرف ﴿ أَلَآ ﴾ شد الانتباه إلى حصر الفلاح في حزبه سبحانه وتعالى، فهو تأكيد للمؤمنين بما ينالهم من الفلاح، وفي نفس الوقت تنبيه ولفت الانتباه لغيرهم بأن يسلكوا مسلك المؤمنين حتى ينالوا فلاح المؤمنين. وفي حصر الفلاح في حزبه عَزَّ وجل ما يفيد أن الخسارة متحققة في كل حزب غير حزبه تبارك وتعالى.

والحزب: هم الأنصار، وحزب الله: هم أنصار الله. فلن يخذل الله تعالى أنصاره أبداً. ومن الفوائد أن الله تعالى أطلق اسم ﴿ حِزۡبَ ٱللَّهِ ﴾ على من والى الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ونسبهم إليه، ليفيد التشريف والتعظيم والمعية والنصرة، حيث أثبت لهم العزة والنصرة بقوله عَزَّ وجل ﴿ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ وكلمة ﴿ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ تفيد العلو، والفوز، والقهر لأعدائهم، والنصر عليهم، لأن الفلاح يعني

الفوز، والفوز يعني الغنيمة، والعزة والانتصار، وتحقيق الخير. فكان اختيار اللفظة معبر عن عموم الفلاح بكل دلالاته المتعددة، التي تستوعب تلك المعاني الدنيا والآخرة.

وفي هذا ما يفيد أن من يتولى الله ورسوله، فعليه أن يثق بالتوفيق والسداد والنصرة على الباطل، ولا يخاف من الدائرة إن دارة، فإن العاقبة لحزب الله تعالى، لأن لله تعالى حكمة في المداولة بين الناس، فالملك ملكه، والحكمة حكمته جَلَّ جلاله، ولكن العاقبة لأولياء الله تعالى في الدنيا من النصر والتمكين، وفي الآخرة من الفوز بالجنان والنعيم المقيم. اللهم اجعلنا من حزبك الذين رضيت عنهم ورضوا عنك يا رب العالمين.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة المجادلة. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.